« ( ) »

AL-ZMAN

Chronica of Agonistic
Jewish Islamic Thought

ستنا هاجر وبيت الله الحرام زهية قندس

زهية قندس

https://al-zman.org/sittna-hajar-and-the-sacred-house/

ستنا هاجر وبيت الله الحرام زهية قندس

زهية قندس

تقطير

عند استشعار دنوّ الموت — سواء كان ذلك ناتجاً عن قوى عضوية باطنية (لنقل لأجل خلل في المشيمة، أو مرض مناعي قاتل)، أو بسبب تهديد حياة شخص عزيز (إذ تعتقد بعض الأمهات أنهن يحملن أطفالهن في أحشائهن إلى الأبد)، أو خطراً مفروضاً من الخارج على مجموع إنساني ما (لنقل عبودية أو إبادة جماعية) — ينشط تلقائياً دليلٌ كامنٌ داخل الجسد. فحين تُشمُّ رائحة الموت ويُتَذَوَّقُ طعمه، تبادر الروح بالتحرك أولاً. فعلى مرآى تواجد العقل في حالة من الارتباك الشديد، عاجزاً عن استيعاب إشارات الخطر الداهم والرد عليه، تنسحب الروح من الجسد وتظل على مسافة قريبة منه. رغم أن النبي محمدًا أُمِرَ بأن يكتفي بردٍّ مقتضبٍ على الفضوليين حول ماهية الروح، "قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (سورة الإسراء: 85)، إلا أن هناك بعض الأسس الوجيهة التي جعلت مفكرين مثل ابن سينا والغزالي افتراض أن الروح تتكون من بخار لطيف يتخذ من لطيفة القلب مستقراً لها. ورغم أن موطن الروح داخل الجسد لا يثقل عليه بأي وزن، ففي الانسحاب ما يتيح للقلب أن يقود بمفرده، مختزلاً كافة الأنشطة للحد الأدنى الضروري لتفعيل الدورة الدموية والتركيز على عملية التدفئة والتبريد. إن هذا النوع من "التقطير"، إن شئنا إعادة توظيف مفهوم استخدمته أودري لورد في مقالها "الشعر ليس ترفاً"، والذي يتجلى كما ذكر سلفاً من خلال تعليق عمل العقل، والانسحاب المؤقت للروح، وتحقُّق المعرفة العملية للقلب - هي الصيرورة التي تحول دون شروع الجسد في التحلل الذاتي أو الـ autolysis. وفي حالة النجاة، يصل القليل جداً من هذه التجربة إلى اللسان، ومع ذلك يتجلى أثرها في تحوّل جذري لمفهوم "الأنا".

عن الملحمة التوحيدية

في قلب الصحراء، وسط أرض مكة القاحلة وعند أطلال البيت العتيق، خفَّ وزنُ قِربة الماء التي كانت تحملها هاجر وانقطع صوتُ تلاطمِ ما فيها؛ كان إسماعيل، طفلها الرضيع، ملتصقاً بصدرها في تلامسٍ مباشرٍ للجسدين. ألقت هاجر قربة الماء عن كتفها، وأسرعت خطواتها، واحدة اثنتان ثلاث أربع خمس ست سبع مرات، ودارت حول التلتين اللتين أحاطتا بها، باحثة عن الماء أو عن أناس يحملون الماء. شعر إسماعيل بحرارة جسد أمه وعرقها، فانزلق عن صدرها ليستقر فوق بطنها؛ كان لا يزال يسمع صدى همساتها، لكنه أضحى أضعف من أن يتشبث بثدييها الجافين. وفي تلك الأثناء، كان إبراهيم، مضطرب البال، قد ابتعد بضعة كيلومترات عن البيت العتيق، سائراً بجوار حماره في رحلة العودة الطويلة إلى أراضي كنعان

الخضراء. هناك كانت سارة، رفيقة عمره وأم ابنه الثاني إسحاق، تجلس عند مدخل البيت بانتظار عودته، وقد فاحت منها رائحة الخبز الطازج. وفي غضون ذلك، لمع فجأة حجرٌ أسود وسط الركام، وظهر الملاكُ، متألقاً ببريقٍ في عينيه. وحين سمع البدوُ في الجوار صخب الطيور، هرعوا إلى المكان ليجدوا معجزة المعجزات: نبعاً من الماء يتفجر، وأماً وطفلها يرتويان ويبردان.

من السهل على الجميع إدراك أن سمات هذه المشاهد المهيبة هي مزيج من الميراث الأدبي للديانتين الإسلامية واليهودية، البداية الدرامية لملحمة التوحيد التي تواصل نبضها وحركتها عبر العصور، حيث تقرع أبواب كل جيل جديد من المسلمين وأهل الكتاب، أي اليهود والمسيحيين، مطالبةً الجميع باستشعار مجدد لأحداثها وبيان العبر في دراستها.

تبرز في هذه القصة عناصر جوهرية تتعلق بالشخصيات المركزية لهؤلاء الأسلاف في التراث الإسلامي، متمثلةً في شخصية هاجر، المرأة الشجاعة والأم المرضعة وتجربة سعيها الدؤوب والمضني بين التلّتين من أجل إنقاذ رضيعها الواهن الذي أشرف على الهلاك؛ كما وهناك شخصية إبراهيم، الأب المحب والمضطرب الذي يمتثل لأمر إلهي ويترك زوجته وابنه عند أطلال بيت الله الحرام (الكعبة)، بالإضافة إلى الحجر الأسود السماوي. أما حمار إبراهيم، والقربة (أو وعاء الماء) التي حملتها هاجر، وشخصية سارة القوية، وتفاصيل المائدة الغنية للأسرة، فهي عناصر تستند إلى الصيغة الموسّعة للقصة كما وردت في سفر التكوين (جينيسيس).

تفاصيل أخرى، مثل ظهور الملاك، وانبثاق نبع الماء، وميلاد إسحاق ابن سارة، فهي جميعها معتمدة ومقررة في التاريخ القصصي لكلا الديانتين. أما صورة تلألؤ الحجر، والبريق في عيني الملاك، ووضعية التلامس الجسدي المباشر بين هاجر وابنها، فهي امتدادات لخيالي؛ إذ يبدو لي أمراً غير واقعي أن تنفصل أمٌ عن رضيعها في موقف حرج كهذا، خلافاً لما يوحي به سفر التكوين والرواية المستندة عليه في صحيح البخاري. ورغم القرون العديدة التي تفصل بيني وبين هاجر، إلا أنني أميل إلى الاعتقاد بأنها حين ذاقت طعم الموت على لسانها الجاف، كانت قد خضعت لعملية "تقطير" جوهرية، حيث تولى قلبها زمام الأمور بدلاً من عقلها. ففي ظل هذه الظروف القاسية، الالتصاق الوثيق هو التصرف الذي يُرجح أن تقدم عليه معظم الأمهات بدافع الفطرة.

يمثل حضور هاجر في سفر التكوين خروجاً عن مسار الحبكة الرئيسية؛ إذ تبدأ قصتها بصفتها جارية لسارة، التي اختارتها كوسيلةً للإنجاب بعد أن تقدم بها العمر وفقدت الأمل في أن تلد بنفسها. وكما يجادل جيل أنيدجار في كتابه الصادر مؤخراً عن سيادة الأمهات On the Sovereignty of Mothers: The Political as Maternal ، فإن شخصية هاجر مهمة طالما قامت بدور خدمة حياة أفراد الأسرة الرئيسية، أي سادتها. تُبقي الرواية الإسلامية على حقيقة أن هاجر كانت جارية حتى زواجها، غير أن نقطة الانطلاق تكمن فيما آلت إليه بعد

تحررها. ومن المنطقي القول إن نقطة بداية القصة تُحدث فارقاً جوهرياً بين صورتي الهاجرتين، محددة تداعيات قصتها حتى يومنا هذا.

في الإسلام، تُعد هاجر أم الأمهات جميعاً. ففي عام 570 ميلادي، وُلد حفيدها: النبي محمد. لقد نشأ النبي محمد، صلوات ربي وسلامه عليه، وتشكّلت شخصيته في البيئة التي استقرت فيها جدته الكبرى ليحمل بشرى تجديد نبوة آبائه إسماعيل وإبراهيم في قلب الأراضي العربية، وعبر كتاب مُنزَّل باللغة العربية. اعتبرت المفسرة القرآنية عائشة عبد الرحمن أن هاجر لم تكن مجرد نموذج نسائي أول في التاريخ الإسلامي بفضل "دورها الأمومي" فحسب، بل أيضاً، أو بالأحرى في المقام الأول، بفضل "دورها القيادي" ("Islam and the New Woman"). تتألق ستنا هاجر بصورة دافئة جداً في الأحاديث النبوية وفي القرآن الكريم ضمن سياق قصص إبراهيم، كما أنها تشكل نموذجاً حياً يُحتذى به في مختلف المجتمعات الإسلامية على مر العصور. بدأ نزول الوحي القرآني عام 610 ميلادي، إلا أن التقويم الإسلامي (الهجري) يبدأ من عام 622 ميلادي؛ وهو التاريخ الذي يوافق "الهجرة"، أي انتقال الجماعة المسلمة الأولى من مكة إلى مدينة يثرب (التي عُرفت لاحقاً باسم "المدينة المنورة")، طلباً للأمان من الاضطهاد الذي واجهوه في مكة، مبعث الديانة الإسلامية. وبهذا الشكل يمكننا أن نجد في معنى اسم هاجر ما يشير إلى عملها المتمثل في هجرتها من كنعان إلى مكة. وعلى غرار الهجرة من مكة إلى المدينة، هجرة هاجر من كنعان الى مكة تمت أيضاً بأمر من الله، لا بقرار انساني.

قبل أن نستعرض التجلي الأدبي لصورة هاجر الإسلامية من خلال التركيز على بعض الآيات القرآنية، من المهم ألا نغفل عن حقيقةً غامضةً في مستهل حديثنا. تشير سيلين إبراهيم في كتابها عن المرأة والجندر في القرآن (Women and Gender in the Qurʾan) أن "تقريباً جميع الشخصيات النسائية المذكورة في القرآن تظهر مقترنةً بأحد أفراد الأسرة"؛ غير أن ستنا هاجر ليست واحدة منهن. اسمها غير مذكور بشكل بيّن في القرآن والإشارات المتعلقة بها نجدها مبهمة أو مشفرة. ورغم ذلك، ترى رفعت حسن في دراستها عن هاجر أن الرواية الواردة في صحيح البخاري كافية لإعادة بناء قصتها وتقديمها في صورة"البطلة" (("Islamic Hagar and her Family" in Hagar, Sara, and their Children, Jewish, Christian, and Muslim Perspectives)). وكما سنرى، فإن صوت هاجر ودورها الفاعل يتضحان جلياً في هذه الرواية؛ ومع ذلك، فإنني أرى أن هذه الرواية تفشل في تقديم الإمكانات الهائلة الكامنة في هذه القصة التأسيسية، كما أنها لا تكفي لدحض ما يصفه فتحي بن سلامة "غياب" هاجر و"إقصاؤها من النص التأسيسي"، أي من القرآن (Psychoanalysis and the Challenge of Islam).

إذا بادرتُ للتو بطرح وجهة نظر مغايرة، كأن أقول إن لهاجر "حقاً في الغموض"، مستعيرةً لغة إدوارد غليسانت (Édouard Glissant)، فقد أخاطر بفقدان ثقة قرّائي، أو ما هو أسوأ من ذلك، أخشى أن أفقد ذاتي إن تعمّدتُ السير داخل ذلك الممر الفكري الخانق الذي ظلّ، على مدى القرنين الماضيين تقريباً - أي منذ عصر الحداثة الاوروبية الاستعمارية - يقيّد الكثير من

العرب والمسلمين الأذكياء، سواء كانوا من طبقة المثقفين أو من عامة الناس، يُبقيهم أسرى -بوعي أو دون وعي-لخطاب التبرير والدفاع. هو ذاته الخطاب الذي يبالغ في تمجيد الإسلام فيُعرّض أصحابه والإسلامَ للسخرية، أو يجبرهم على التنصل من الدين (بقولهم: "لم نعد نؤمن بالإسلام أصلاً")، أو تبني التهمة الموجهة إلى الإسلام بالكامل (بقولهم: "الإسلام دين يكره النساء").

ولكن إليكم رأيي: لقد سئمنا مصارعة لغة وزراء الحرب، وأنهكتنا أعباء هواجس المستشرقين، وأرهقتنا رؤية أنفسنا في مرايا الآخرين. لقد أعاقتنا هذه المواقف عن تلبية الحاجة التي يشدد عليها أسد قدري أحمد، الحاجة إلى "العودة لقراءة ميراثنا العلمي بلغاتنا الشرقية وضمن منظوماتنا الفكرية الأصلية" (محاضرة في جامعة لاهور). وأحمد محق في ذلك؛ فقد انشغلنا عن أنفسنا طويلاً، وعن أمور كثيرة كان ينبغي علينا القيام بها، كإعادة بناء البنية التحتية لمدننا، وإصلاح الطرق المؤدية إلى أحيائنا المدمرة، وإعادة تشييد منازلنا المهدومة، وتخطيط حدائقنا، وشفاء ألسنتنا المتعثرة، واستعادة كل ما هو حق لنا. ذلك أننا، وأينما عشنا، نعيش بلا وطن؛ ومهما بلغت ثرواتنا الطبيعية من وفرة، وارتفعت أبراجنا في قلب الصحارى، فإن ماضينا الإسلامي يبدو تماماً كأكوام الركام المرتفعة في مدن قطاع غزة.

وإذا أخذنا في الحسبان ما بذلناه من وقت وجهد وموارد استثمرناها في مقاومة السياسات الاستعمارية المتعنتة، يتعين علينا أن نضمن أن كل ما نقوم به اليوم يخدم أجندتنا ومصالحنا. تتطلب المسألة اهتماماً خاصاً قبل القيام بطرح تساؤلات جوهرية وحساسة، مثل: "أين نجد ستنا هاجر في القرآن؟". فإذا كان هذا السؤال يخدم قضيتنا، وهو بلا شك يخدمها، فعلينا تناوله دون تردد ودون الريبة من عدم العثور على ستنا هاجر في القرآن أو من الضياع معها في دروب البحث عنها. بل ينبغي علينا أن نتناول الأمر بثقة وسكينة وفضول إيجابي.

فحتى عندما تبدو الأمهات غائبات أو صامتات، سواء في بيوتهن أو في النصوص المقدسة، فإن حضورهن يظل أمراً محتوماً. في حال لم نجد أمُّنا في غرفة المعيشة، علينا أن نبحث عنها في مكان آخر، وأن نتتبع خطاها أينما كانت: فوق سطح البيت، أو عند مكتبها، أو في المطبخ، أو حتى في أحلامنا. علينا أن نرافقها في أي نشاط تجده مهماً بالنسبة لها، سواء كان القراءة أو الطهي أو الصلاة. في حال لم نجدها في بيتها، يمكننا أن نطرق أبواب الجيران عسانا نجدها هناك، لكن الأفضل أن نترقب عودتها بصبر جالسين على درج مدخل بيتها. وما إن نلمحها قادمة من بعيد، يتوجب علينا الوقوف والنداء بصوت عالٍ: "انا هون يمّا، انا هون يمّا"، كي تسمعنا وتدرك أننا بانتظارها. حينها، علينا أن نركض نحوها، وأن نخلص أصابعها المتورمة من ثقل الأكياس التي تحملها معها من السوق، ونخرج كل غرض ونضعه في مكانه المخصص: في الثلاجة، أو على الأرفف، أو على مائدة الطعام. علينا ترتيب المكان تماماً كما تحب هي، وترك الأسطح نظيفة، وإغلاق الباب برفق قبل المغادرة.

فتماماً كحال البيوت، تحمل النصوص المقدسة صورة الجدّات المؤسِّسات. فليس هناك كتب سماوية بدون الجدّات، ومن غير الممكن تخيل جدّة بدون بيت.

حول لغز حذف اسم "هاجر" من القرآن

تحظى الأسماء وعملية التسمية بقيمة عظيمة في القرآن، فلله ذاته مائة اسم، "ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوَ الرَّحْمَنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ" (سورة الإسراء: 110). ومن بين مقاصد القرآن التفصيل، "وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا" (سورة الإسراء: 12)، كما والبيان ("تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ" (سورة يوسف: 1)، وسرد أحسن القصص ("نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ" (سورة يوسف:3). إنه إذن وحيٌ سماوي جاء ليكشف الباطن والمجهول وليقول كل شيء عن الحاضر وعن الماضي والمستقبل. فكيف يتسنى لنا اذن الكتابة عن هاجر المسلمة من "وجهة نظرها"، كما يشير بن سلامة، إذا لم تكن هي نفسها موضعَ نظرٍ في المقام الأول؟ وهل صحيحٌ حقاً أن شخصيتها تُعدّ "غير قابلة للنقل" أو التجسيد في القرآن؟

يؤكد القرآن وبشدة على الطبيعة البشرية للأنبياء وأفراد عائلاتهم ويحصر العبادة في الإله الواحد: "لا إله إلا أنا فاعبدونِ" (سورة الأنبياء: 25). فمن ناحية، قد يُعزى عدم ذكر اسم ستنا هاجر في القرآن للحيلولة دون أن تكتسب مكانةً شبيهة بتلك التي حظيت بها ستنا مريم في المسيحية، أي أن تتحول إلى شخصية إلهية تُعبد بدلاً من كونها امرأة مُكرَّمة حظيت بالهداية الإلهية. غير أن هذا التفسير لا يبدو مقنعاً بما يكفي، نظراً لأن شخصية ستنا مريم حاضرة بوضوح في النص القرآني.

ومن ناحية أخرى، فقد يتعلق الأمر بطبيعة العلاقة التي يُقيمها النص القرآني مع النصوص المقدسة السابقة لنزوله. إذ يُعتقد أن النبي محمداً قد ختم سلسلة النبوة في نسل إبراهيم، كما ويُنظر إلى القرآن باعتباره كلاً متكاملاً قائماً بذاته. وفي الوقت ذاته، يقرّ القرآن بالكتب المنزّلة السابقة له: "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" (سورة البقرة: 136).

ومن هذا المنظور، فإن أمر الملاك جبريل للنبي محمد بأن "يقرأ"، التي هي أولى كلمات الوحي، قد امتد عملياً من واجب قراءة القرآن ليشمل واجب قراءة التوراة والانجيل. وبطبيعة الحال، ففي المسائل الخلافية يظل التزام المسلمين بكتابهم. ومع ذلك، فهم يدركون أن التوصل إلى فهم شامل لكتابهم يتطلب الرجوع إلى الكتابين السابقين. وعليه، فما قد يبدو "نقصاً" في التفاصيل والخلفيات في القرآن الكريم، هو على الأرجح قرار إلهي متعّمد يعود لأسباب لاهوتية وتفسيرية، وربما أيضاً سياسية. وبهذا المعنى، لا يمكن تصور قصة ستنا هاجر في المنظور الإسلامي بمعزل عن قصتها في المنظور اليهودي، رغم التباين الكبير في تصوير الهاجرتين.

يجادل عبد القاهر الجرجاني -وهو عالم بارز في علوم القرآن ومنظّر أدبي مرموق عاش في القرن الحادي عشر- بوجود عنصر "دقيق" و"ساحر" في عملية "الحذف". فبدلاً من أن يكون الحذف نقصاً أو قصوراً، قوته في دفع المتلقي للتحقيق في بواطن النص والسعي الدائم لتحقيق معاني جديدة قصرت أجيال سابقة على كشفها، "[الحذف] هو بابً دقيقُ المسلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيُّه بالسحر؛ فإنك ترى به تركَ الذكر أفصحَ من الذكر، والصمتَ عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبنِ (تبَيّن)".

يُرسّخ القرآن الروابط الاجتماعية بين المسلمين ومن هم غير مسلمين كما ويحث المسلمين على الحديث "وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ" (سورة الضحى: 11). ومع ذلك، ففي ظروف معينة يكون الامتناع عن التواصل الاجتماعي وعن الكلام علامات سماوية تشير إلى تحوّلٍ كبير في حياة الانسان. فعلى سبيل المثال، حين علمت ستنا مريم بحملها المعجِزيّ الوشيك، أُمِرت بالانعزال في مكانٍ قصيّ وألا تُكلّم أحداً "فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا" (سورة مريم: 26). وكذلك أُمِر زكريا بالتزام الصمت لثلاثة أيام كعلامةٍ على رزقه بمولودٍ رغم تقدمه وزوجته في العمر"قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا" (سورة مريم: 10). وكما هو الحال مع الصمت، ففي الحذف أو الغياب عن النص ما يُفصح عن معانٍ أعمق وأكثر دلالة من الذكر والحضور. ونظراً إلى أن الإطار العام لقصص الأنبياء البارزين مُرسَّخ بالفعل في الكتب المقدسة السابقة، فالقصص التي يرويها القرآن لا تسير في خط مستقيم، بل تتخذ مساراً دائرياً. تُعزِّز هذه الديناميكية عملية التعلُّم، إذ تحفِّز المتلقين على التأمل فيما لم يُقَل، وملاحظة من يغيب عن المشهد، وتكوين استنتاجاتهم الخاصة. وبهذا الشكل، ورويداً رويداً، يدركون كيف تفسِّر معاناةُ هاجر حياةَ النبي محمد، وكيف تفسِّر محنُ يوسف حياةَ موسى، وكيف كان لزاماً على هاجر أن تكتسب نفوذاً في مكة، وعلى يوسف أن يتبوأ مناصب رفيعة في مصر.وكحال جمهور المسرح اليوناني، يمتلك متلقو القرآن معرفةً بتفاصيل الأحداث تفوق أحياناً ما يدركه أبطال القصص أنفسهم؛ فمن المرجح أن هاجر لم تكن تدرك دورها المحوري في البزوغ المستقبلي للإسلام كديانة عالمية، كما أن يوسف لم يكن يتصور كيف سيقع قومه في براثن العبودية، ولا المعجزات المذهلة التي سيُجريها الله لتحريرهم.

ستنا هاجر وشعائر الله

في مقطعٍ من سورة البقرة، يُطلع اللهُ النبيَّ محمداً، وهو المخاطَب الأول في القرآن، على مكانة جدته الكبرى لديه. فيما يلي، لا يُذكر اسم هاجر صراحةً، كما أن الصخور لا تنطق (على الأقل لا بلغة البشر). ومع ذلك، فبعد أن كانت مجرد تلالٍ عادية قبل وقوف ستنا هاجر هناك، أضفى ذلك اللقاءُ على كلٍّ من الصفا والمروة، وعليها أيضاً، صبغةً مقدسة، إذ أصبحوا ثلاثتهم من شعائر الله:

ولَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُون. إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيم. (سورة البقرة:154-157)

بكلمات أخرى، فإن الإيمان الصادق لا يعفي المؤمنين والمؤمنات من التعرض لـ "شيء" من المحن والشدائد، بل يتحتم عليهم خاصة أن يكونوا قادرين على تحمل شتى أنواع المصائب، بما في ذلك الخسائر في الأرواح والتجرد مما يملكون. ولا شك أن ستنا هاجر قد خاضت الاختبار الأعظم على الإطلاق: تجربة أمٍ توشك أن تفقد وليدها، وأمٍ توشك أن تقتل طفلها بيديها لقرار خاطئ اتخذته. في الآيات السابقة، يمكننا أن نلمس دفء مشاعر الله اتجاهها والتقدير الفريد نحوها؛ إذ نجحت بصدق في تحقيق ذلك التوازن الدقيق -والصعب المنال- المتمثل في تقبّل القضاء والقدر والكسب وصناعة الحياة في آنٍ واحد. ففي موسم الحج، وطوال العام أثناء أداء العمرة، يتقمص المسلمون شخصية ستنا هاجر حين يسيرون على خطاها. رفعت حسن محقة حين قالت إن "ظل هاجر يمتد مهيباً فوق الوادي الذي وقفت فيه يوماً وحيدة، وإن روحها حاضرة ومتجذرة في الكعبة، تماماً كروح زوجها إبراهيم وابنها إسماعيل".

النبي إبراهيم -إمام الأنبياء جميعاً- وصاحب القلب السليم، "إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" (الصافات: 84)، والذي قامت علاقته بالله على أسس الخُلّة والصحبة، "وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا" (النساء: 125)، غاب عن ذلك الحدث الرهيب في صحراء مكة. مع ذلك، تُبرز سورة إبراهيم مشاعر القلق التي انتابته لحظة ابتعاده عن زوجته وطفله؛ إذ كان واثقاً من النجاة، لكنه كان يخشى بشدة أن يلتفت إلى الوراء: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون."(سورة ابراهيم: 37). في مناجاته لربه، كان إبراهيم يسعى لتهدئة ما يجول في نفسه من اضطراب عبر تذكير ذاته بالغاية الأسمى، وهي إقامة الصلاة في البيت الحرام.

استقرت هاجر في مكة، وتوجهت القلوبُ كما دعا ابراهيم نحو تلك المرأة الغريبة التي حازت على أعظم ثروة في الصحراء، بئر ماءٍ فائض، بئر زمزم، حيث تولت بنفسها الإشراف على صيانته وتوزيع مائه بالعدل:

> [...] وأضاف النبي: "كانت أم إسماعيل (هاجر) جالسةً عند الماء، فسألوها [أي قوم جُرهم]: 'أتأذنين لنا أن ننزل عندكِ؟'فأجابت: 'نعم، ولكن لا حقَّ لكم في ملكية الماء'. فوافقوا على ذلك. ومضى النبي قائلاً: 'لقد سُرَّت أم إسماعيل بذلك الوضع، إذ كانت تحبُّ أُنسَ الناسِ وصحبتهم'". (صحيح البخاري)

وفقط بعد بضع سنوات، تتجلى قصة التضحية التي جمعت بين الأب وابنه لتُثمر عن منح إبراهيم وإسماعيل شرف إعادة بناء البيت الحرام. من المهم مراعاة هذا التسلسل للأحداث. المكانة المرموقة التي حظيت بها ستنا هاجر في مكة هي التي مكّنت إبراهيم (الذي على الارجح كان يُعرف في أوساط القوم بكونه زوج هاجر) من المضي قدماً في خطة إعادة بناء البيت العتيق في أرضٍ غريبة دون أن يواجه أي معارضة.

حول فارق السن لإسماعيل في سفر التكوين والقرآن، وما يتيح لنا ذلك أن نرى

في سفر التكوين (جنسيس)، تبدو حادثة الطرد النهائي لهاجر وإسماعيل من بيت العائلة مشهداً دراماتياً بامتياز. ففي الليلة التي سبقت الطرد، كان الجميع منشغلين بالتحضير لـ "مِشتي غادول"، أي وليمة عظيمة باللغة العبرية، أقامها إبراهيم احتفالاً بفطام إسحاق (والذي كان يبلغ حينها عامين أو ثلاثة). قبل ذلك ببضع سنوات، وأثناء توجه الملائكة لزيارة لوط في سدوم، توقفوا عند بيت العائلة ليزفوا إليهم بشارة سارّة: حمل سارة الوشيك؛ تلك المعجزة التي استعادت بها سارة نضارة بشرتها وتورّد وجنتيها.

تدفعنا الضيافة المميزة التي قُدّمت للملائكة في تلك المناسبة إلى تخيّل ما قدّم في احتفال فطام إسحاق. فكما هو مذكور، لقد ضمت تلك المائدة الشهية والتي أُقيمت في ظل شجرة الدار والتي دُعيت إليه الملائكة للاستراحة، خبز سارة وكعكها المصنوع من أجود أنواع الدقيق، وما كان يشتهر به إبراهيم من ألبان وحليب، بالإضافة إلى الطبق الرئيسي: لحم عجل طري.وهو طبق أتخيل أن إسماعيل أصرّ بنفسه على ذبحه وطهيه لأجل أخيه الصغير والحبيب. وهذا يقودني إلى افتراض آخر وهو أن رغيف الخبز الذي أعطاه إبراهيم لهاجر في الصباح الذي طردها فيه هي وابنها هو من بقايا تلك الوليمة التي أقيمت في الليلة السابقة. وعند النظر في توقيت ذلك الاحتفال، وفارق السن البالغ أربعة عشر عاماً بين الأخوين، نجد أن إسماعيل لم يكن طفلاً ولا صبياً صغيراً آنذاك، كما يصفه الراوي تارةً بهذا وتارةً بذاك، بل كان شاباً يافعاً يتراوح عمره بين السادسة عشرة والثامنة عشرة. وبالنظر إلى سمات أفراد الأسرة التي نشأ في كنفها، لم يكن هذا الشاب قوي البنية فحسب، بل كان عنيداً، رقيق القلب وسريع الغضب في آن واحد، كما كان يتمتع بقدرٍ لافتٍ من الاعتزاز بالنفس.

يشير هذا التخيل لتطور الأحداث إلى انقلابٍ جذريٍ لما حصل مع هاجر وإسماعيل في جنوب صحراء أرض كنعان عقب تجريدهما من كافة ممتلكاتهما. نستطيع أن نتصور، أنه بينما كانت هاجر تهيم على وجهها في البرية حائرةً ومضطربة، لا بد أنها استحضرت ذلك التباين الصارخ بين الأمسية المفعمة بالبهجة وبين الصباح الكئيب الهادئ؛ عاجزة عن استيعاب كيف أقدم إبراهيم على فعلته تلك، وكيف وقفت سارة صامتةً تتركها لترحل بعد كل ما تقاسمتاه معاً من تجارب

الحياة. يمكننا أيضاً تصور إسماعيل وهو في ثورة غضبه يضرب الهواء بعصاه يميناً وشمالاً، عاجزاً عن أن يصدق ما فعله والده به وهو ابنه البكر ويده اليمنى.

وإذا خالفنا منطق الراوي، فسوف نجد أن هاجر هي من ستضعف وتستلقي تحت شجيرة، وإسماعيل هو من سوف يفقد صوابه على مرآى أمه تحتضر عطشاً، وليس العكس كما هو مذكور. ورغم أن هذا المشهد يظل مشحوناً بقدر هائل من التراجيديا، إلا أنه يلغي العناصر الأساسية التي تشكّل المأساة الإسلامية: فلا أمّ مُرضِع، ولا طفل يحتضر، ولا إعادة لبناء الكعبة، ولا محمد، ولا إسلام. لا يوجد عمر يمكن فيه تحمّل البنات والأبناء فقدان الأم، ومع ذلك يظل هذا النوع من الفقدان متماشياً مع قوانين الطبيعة؛ حيث على الصغار دفن الكبار، أما مقتل الصغار فهو الأمر الذي يفتت حتى أقسى القلوب.

بالعودة إلى المصادر الإسلامية، نجد أن سارة مُعفاة من أي مسؤولية عما عانته هاجر أو عن الانقسام الذي حلّ بالأسرة. فكما كان الحال مع موسى وأخيه هارون، فبالمنظور الإسلامي لم يكن إبراهيم يعمل بمفرده؛ بل كان يشارك ما يتلقاه من وحي ويسعى للتعاون. ووفقاً لما ورد عن البخاري عن النبي محمد، كانت هاجر تدرك تماماً طبيعة الموقف؛ فقد سألت إبراهيم عمن اتخذ قرار تركها وحيدة في ذلك الوادي القفر: أهو قراره الشخصي أم أمرٌ من الله؟ وحين أدركت أنه أمرٌ إلهي، سلّمت لقدرها بقلب مطمئن. ولا عجب أن يسير ابنها على النهج ذاته بعد بضع سنوات في واقعة التضحية مع والده.

ورغم هذا التأكيد في الميراث الاسلامي على حرية هاجر في اتخاذ قرارات بشكل مستقل وواعي، إلا أنني أعترف أن لدي بعض الشكوك حول توقيت ذلك الحوار بينها وبين زوجها ابراهيم. فكما هو مذكور في سفر التكوين، كانت هاجر قد بدأت بالفعل في التواصل مع ملاك الله في كنعان عقب هروبها من منزل العائلة بسبب قساوة سارة معها بعد فترة وجيزة من الحمل.يُقال لنا أنه في هذا الحدث، عندما أطلق الله اسم إسماعيل على جنينها، أي الإله الذي يسمع، أطلقت هاجر على الله اسم "إل روئي"، أي الإله الذي يراني. وعليه، فإنني أرى في هذا التبادل الحميم والمتقدم للأسماء بين الله والجدة الكبرى للمسلمين على أرض كنعان إشارة محتملة لتلقيها إلهامًا إلهيًا مباشرًا وبدون وسيط بخصوص هجرتها المرتقبة، وهو الأمر الذي ربما أكده زوجها لاحقًا.

وبصفتي امرأة وأماً، يساورني القلق بشأن المدة الزمنية التي تستغرقها الأمور؛ فالوقت هو كل ما يهم حين يتعلق الأمر بآلامنا - تلك الآلام بشتى أنواعها التي لا يدركها إلا نحن النساء. لقد أجريتُ حساباً تقريبياً مع صديقي جدعون، وتبيّن لنا أن الرحلة من كنعان إلى مكة تستغرق ما بين ثلاثين وأربعين يوماً، سواءً قُطعت سيراً على الأقدام أو على ظهر حمار. وبالنظر إلى هذه المسافة، إلى تلك الأيام الطويلة التي سارا فيها هاجر وإبراهيم جنباً إلى جنب، هي على جانب الحمار وهو على الجانب الآخر، متبادلين النظرات بين الحين والآخر، وتلك الليالي العديدة التي قضياها في تأمل النجوم دون الحاجة للكلام، فقد أتيحت لستنا هاجر فرص لا حصر لها لكي تتراجع عن قرارها،

لتتوسل مثلاً إلى إبراهيم كي يأخذ اسماعيل معه ويتركها تمر بتجربة الايمان وحدها، أو لتطلب منه أن يوصي سارة برعايته، أو لتنتزع منه وعداً بأن يعيد طفلها إليها إن كُتب لها النجاة، وفي حال موتها، أن يعود بمفرده ويوارى جثمانها الثرى ويقيم لها قبراً، لكي يعلم ابنها حين يكبر أن كانت له أمٌ أحبته.

لكنها لم تتراجع. إن قصة ستّنا هاجر مكتوبة في جوهرها المُقطَّر. وفي التشققات التي تعلو لسانها. والندوب التي تكسو ركبتيها إلى الأبد. اسمها غير مذكور في القرآن، وقصتها لا تُقرأ فيه بما فيه الكفاية، لكنها تُرتشف من حليبها الفائض، تلك المياه الأبدية النابعة من بئرها.

*

تشبه كل ديانة توحيدية وعاءً، و"كل وعاء يَنضح بما فيه"، كما يقول المثل العربي القديم. فالعبرة ليست بمجرد امتلاء الوعاء لتحديد الفارق بين الحياة والموت. بل هي في ماهية السائل الذي يسكبه كل جيل في الوعاء: أهو دم أم ماء، سُمٌّ أم دواء.قوة ستنا هاجر لا ترتكز على امتلاك شيءٍ نفيسٍ يستحيل على الآخرين نيله. إن السيادة التي يبرزها الفكر السياسي الإسلامي من خلال قصتها ليست سيادةً ذكوريةً تسلطية. بل هي نموذج آخر، فيه ما يؤكد على أن قيمة أي مجموع إنساني تُقاس بما يقدموه للآخرين.